مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 27، نوفمبر 2020، ص - ص: 133 – 154
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

التنزيلات المعاصرة للقصص القرآني عند سيد قطب

Contemporary Descending of Qur'nic stories by Saied Qutb

طالبة دكتوراه حبيبة زمامليةّ[1] د/ حدة سابق
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
necira03@gmail.com habibadoctora@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/09/18 تاريخ القبول: 2020/11/13

الملخص:
أقبل العلماء والدعاة على دراسة القرآن الكريم فهما وتدبرا وذلك بالتأمل في معانيه وتذوق مراميه، ومن أبرز من اهتم بذلك سيد قطب الذي كانت له طريقة فذة ميزته عن بقية أقرانه وذلك عن طريق تطبيقاته للقرآن الكريم وتنزيلها على أبرز قضايا عصره ومن ثم إيجاد العلاج المناسب للأمراض التي يئن منها مجتمعه، وعليه جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على جهود المؤلف في قضايا التنزيل، وقد تبلورت معالم هذا البحث باستقراء كتاب المؤلف "في ظلال القرآن " ومن ثم تحليل النماذج القصصية الواردة في ثنايا الكتاب لنخرج برؤية شاملة لمسلك الشيخ في قضية التنزيل، وأنهينا البحث بخاتمة أبرزنا من خلالها أهم النتائج المتوصل إليها.
الكلمات المفتاحية :التنزيلات؛ المعاصرة؛ القصص القرآني؛ سيد قطب.

Abstract:

Scholars and preachers accepted the study of the Noble Qur’an to understand and contemplate, by meditating on its meanings and tasting its goals. Among the most prominent of those who cared about that was Saied Qutb, who had a unique method that distinguished him from the rest of his peers through his application of the Holy Qur’an and descending it to the most prominent issues of his time and then finding the appropriate treatment for the diseases that Society suffer

Therefore, this research paper came to shed light on the author’s efforts in the issues of revelation. The features of this research have crystallized by extrapolating the author’s book. Shadows of the

[1] – المؤلف المرسل.

Qur'an, and then analyzing the anecdotal models contained in the folds of the book to come up with a comprehensive view of the Sheikh's behavior in the issue of revelation. We ended the research with a conclusion, through which we highlighted the most important findings.
Key words: The Descending; Contemporary; Qur'nic stories; Saied Qutb.

مقدّمة:

تحتل القصة مكانة سامية في نفوس البشر على اختلاف مشاربهم، وذلك لما لها من أثر بالغ في المتلقي، ولما في أسلوبها من مسايرة للفطرة يستوجب الولوع بها والحرص على تحصيلها والانتفاع بها لما لها من مقاصد وتوجيهات وأمثال تبرز المعاني الدقيقة بعيدة عن الخيال والأسطورة.

ومما لا شك فيه أن القصص القرآني **سِرَّه**، وغايتَه، دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى، لذا جاءت مقاصده لتعريف الناس بالله، هذا الرب العظيم المتكلم بالقرآن جل جلاله، وقد أدرك المفسرون هذا المقصد العظيم في تفسيرهم لكتاب الله وتدبرهم لآياته قديما وحديثا، فجعلوا القرآن منهجا ودستور حياة، لذا شمر الباحثون للكشف عن الهدايات والدرر الكامنة في ثنايا كتاب الله تعالى، وقد كان قدم السبق للشيخ سيد قطب، الذي اتخذ من آيات القرآن الكريم وسيلة لعلاج ما يعانيه مجتمعه من علل ومشكلات حيث أظهر في ذلك تعاملا فريدا وفهما دقيقا لمضمونها وحُسن تنزيلها، محققا بذلك أسمى مقاصد القرآن الكريم وهي هداية الناس وإصلاح أحوالهم؛ وقد بدا ذلك جليا في تفسيره "في ظلال القرآن "لذا ارتأيت استقراء هذا الكتاب بغية الوقوف على جهود المؤلف في قضايا التنزيل، وتكمن مشكلة الدراسة ببيان طريقة سيد قطب في قضايا التنزيل ويمكن تحديد ذلك من خلال الأسئلة الفرعية التالية:

ـ ما المقصود بالتنزيلات المعاصرة للقصص القرآني ؟

- كيف استطاع سيد قطب - رحمه الله- توظيف قصص الأمم الغابرة وتنزيلها على أبرز قضايا مجتمعه؟

-هل كان للشيخ سيد قطب - رحمه الله -، مسلك متميز في دراسة كتاب الله واستخراج العبر والدروس وربطها بواقع الناس؟

- ما هي مظاهر تنزيلات القصص القرآني في تفسيره؟

وغيرها من التساؤلات التي سنجيب عنها في ثنايا هذا البحث، الذي قسمناه إلى مقدمة ومطلبين، خصصنا الأول للتعريف بعناصر الموضوع وضبطنا مصطلحات البحث بشيء من الإيجاز، أما الثاني فقد تناولنا فيه الجانب التطبيقي مع التركيز على أهم القضايا التي نزّل فيها المفسر الآيات على الواقع الذي يعيشه.

المطلب الأول: ضبط مفاهيم البحث

يُعد الحديث عن مسألة تنزيل الآيات على الواقع ذو أهمية بالغة خاصة في العصر الحديث أين اتسعت الهوة بين القرآن الكريم والواقع المعاصر، لذا كان لزاما ربط الناس وواقعهم بكتاب الله تعالى، وبيان أن آيات القرآن الكريم صالحة لكل زمان ومكان.

وسيأتي في هذا المطلب بيان معاني التنزيلات المعاصرة للقصص القرآني بشيء من الإيجاز وهي كالآتي:

الفرع الأول: معنى التنزيلات المعاصرة

جاء معنى التنزيل في اللغة عند ابن فارس: "ترتيب الشيء ووضعه في منزله"[1].

أما اصطلاحا: فقد اجتهد الباحث عبد العزيز الضامر بوضع تعريف مختصر لهذا المصطلح فقال: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة بما يشابهها في كتاب الله تعالى سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"[2]، وقد استعمل ابن القيم هذا المصطلح – تنزيل – في كتبه منها عند قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَۖ﴾ (المؤمنون: 54)، حيث قال فمن تدبر هذه الآيات ونزّلها على الواقع تبين له حقيقة الحال وعلم من أي الحزبين هو"[3]، كذلك قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ

جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْاَوَّلِينَ (69) أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون: 69-70)، والناصح لنفسه العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ويتأملها حق تأملها وينزلها على الواقع: فيرى العجب ولا يظنها اختصت بقوم.."[4].

كما أن بعض المعاصرين استخدموا في تفاسيرهم مصطلح ال(تطبيق) أمثال مدرسة المنار وعلى رأسها محمد رشيد رضا، وسيد قطب، وعبد الحميد بن باديس ويقصدون بها التنزيل[5].

الفرع الثاني: معنى القصص القرآني

للوقوف على معنى القصص القرآني وجب أولا بيان المعنى اللغوي ومن ثم الاصطلاحي، فالقصص لغة: مأخوذ من الجذر الثلاثي قصص وقد أشار إلى معناها ابن منظور بقوله: "والقِصّة: الْخَبَرُ وَهُوَ القَصَصُ، ويقال: قَصَصْت الشيء إذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء. قال الأزهري: القصّ إتباع الأثر، ويقال: خرج فلان قصَصَاً في إثر فلان، وقصّاً وذلك إذا اقتص أثره. وقيل : القاصّ يقصّ لأتباعه خبراً بعد خبر"[6].

أما اصطلاحا: عرفه العلماء عدة تعريفات أبرزها تعريف عبد الباسط بلبول الذي قال فيه بأنه: «إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفرادا وجماعات من كائنات بشرية، أو غير بشرية، بهدف الهداية والعبرة»[7]، في حين عرفه مناع القطان بقوله: «أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه»[8].

أما مريم السباعي عرفت القصة القرآنية بقولها: «تتبع آثار وأخبار الأمم الماضية، وإيراد مواقفهم، وأعمالهم وبخاصة مع رسلهم، مع إظهار آثار الدعوات فيهم، وذلك بأسلوب حسن جميل مع التركيز على مواطن العبرة والعظة»[9].

من خلال ما تقدم نجد أن تعريف مريم السباعي هو بمثابة تعريف توفيقي بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للقصة القرآنية وذلك أنه جاء موافقا موافقة

تامة للمعنى اللغوي من جهة تتبع الأحداث والأخبار، كذلك أن هذا التعريف له قواسم مشتركة مع التعاريف السابقة في كون القصص حديث عن الأمم الماضية والنبوات السابقة ووصف أخبار السابقين وأعمالهم.

أما المركب اللفظي لمصطلح التنزيلات المعاصرة للقصص القرآني يمكن القول أنه هو ذلك الأسلوب الذي يتبعه المفسر ويجتهد من خلاله بالكشف عن الرابط بين القصص القرآني وما يقابلها من الأحداث الواقعة في زمنه من خلال تفسيره للآية، بغية إيجاد العلاج القرآني لها.

فالمفسر يُعمل فكره ورأيه في إيجاد العلاقة بين القصص القرآني وأحوال الأمم الغابرة وربطها بواقعه المعاصر، وذلك من خلال تقريب معاني الآيات وربطها بواقع الناس، في محاولة للسير وفق منهج قرآني في علاج قضايا مجتمع، وهدفه الأعلى بيان ما أنزل الله بتجلية هدايات القرآن وتعاليمه وحكم الله فيما شرع للناس في القرآن وقصصه المعبرة، وهذا المنهج لا يهتم ببيان الألفاظ والإعراب والقراءات بل كان هدفه ذكر معارف القرآن والاهتداء بهدايته.

الفرع الثالث: مسلك سيد قطب في تنزيل الآيات على واقعه

بعد تتبعنا لتفسير"في ظلال القرآن" واستخراج النماذج التطبيقية التي نزّل فيها المفسر الآيات على واقعه، يمكن القول أنه سلك في ذلك دربين رئيسين:

الأول: **الصريح** وذلك من خلال إطلاقه لجملة من العبارات، مفادها أن مضمون الآية ومعناها ينطبق على واقعه وعصره وهذا ما بينه في مقدمة كتابه، ولقد صرح على ذلك بقوله: "ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التي احتوتها السورة خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان، وقيد الظروف والملابسات، تواجه النفس البشرية، وتواجه الجماعة المسلمة - اليوم وغدا - وتواجه الإنسانية كلها، وكأنها تتنزل اللحظة لها، وتخاطبها في شأنها الحاضر، وتواجهها في واقعها الراهن.. والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن وقراءته والاطلاع على علومه.. إن هذا ليس «جو القرآن» الذي نعنيه.. إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي

ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن.. أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن «ينشئ» الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية. بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية ومنهجه الرباني وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة بعد الكفاح والجهاد والإصرار .."[10].

فمثلا بعد بيانه لقصة نوح – عليه السلام – ووقوفا عند قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ (القمر: 10)، ربطها بواقعه فقال: "إن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة ـ وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطا أخرى، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائما، ويلابسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا، بكل ما في طاقتهم من جهد ثم يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعند ما يغلبون عليهم يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح ﴿نوح فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ (القمر: 10).. ثم ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة فهم على هذا الانتظار مأجورون"[11].

الثاني: **التلميح والتعريض** يُستنبط ذلك من تلك الإشارات التي تلمحها في ثنايا تفسيره للآيات، حيث يشير إلى أن معنى الآية حاصل في زمنه، أو أن واقعه مخالف لمعنى الآية.

وبعد تتبعنا للتفسير وجدنا أنه كثيرا ما يتحدث مثلا عن حكام بلاده يصفهم بالطواغيت، خاصة عند تعرضه لقصص بني إسرائيل ففي حديثه عن قصة موسى مع فرعون فينزل الكلمة الأخيرة على حكام المسلمين، وهذا النوع نلمحه متناثرا في ثنايا الظلال، وهذا ما سنبينه في الجانب التطبيقي من البحث.

المطلب الثاني: مظاهر تنزيلات القصص القرآني عند سيد قطب

تنزيل آيات القصص القرآني على الواقع عند سيد قطب اتخذت مظاهر عديدة، وصور شتى، سعى من خلالها لترسيخ مجموعة من القيم السياسية والعقدية الروحية، وذلك بلغة سهلة حتى يتضح الهدف والمقصد، وهذا ما سنبينه في هذا المطلب وهو كالآتي:

الفرع الأول: تنزيلات القصص القرآني على القضايا السياسية

لقد عاصر سيد قطب -رحمه الله- نهضة فكرية عظيمة شملت معظم المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية وكان للدعاة والمصلحين دورا فعالا وبارزا في ذلك عن طريق المناداة بأهمية الدين في المجتمع وربطه بواقع الناس، فراح قطب كغيره من المصلحين إلى إيقاظ الضمائر والدعوة إلى التحرر من كل أنواع العبودية والظلم والطغيان فاتخذ من قصص القرآن الكريم، وسيلة فعالة وأنموذجا واقعيا عن طريق قصصه المعبرة وعظاته السامية

المثال الأول: نلمس ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (الدخان: 23)، قال: "ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض: ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ما حل الميعاد: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَالَارْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: 28)، وهو تعبير يلقي ظلال الهوان، كما يلقي ظلال الجفاء.. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء وذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبارين في الأرض يطئون الناس بالنعال! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه! ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعت آصرة الإيمان"[12].

من خلال هذا العرض الموجز لبعض الجوانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، نلحظ اهتمام قطب بالقضايا السياسية حيث عبر عن موقفه من حكام بلاده ووصفهم بالطواغيت، وبين أن الهلاك مصير كل مستبد وطاغية وهذا التفسير يحمل في طياته تنزيلا واقعيا على الحكام الطغاة الذين عاصرهم المؤلف.

المثال الثاني: وفي موضع آخر من قصة موسى عليه السلام ووقوفا عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (112) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف: 112-113)، قال: "إنهم محترفون يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هو وظيفة المحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده -سبحانه- بالحاكمية وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقرون سلطانه باسم الدين! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين"[13].

من خلال ما تقدم نلحظ أن قطب -رحمه الله - لم يعرض القصة بتفاصيلها كما وردت في كتب المتقدمين بل اتخذ منها سلاحا فعالا سلطه على حكام عصره، وهو بهذا استخدم التنزيل بالتلميح الذي له علاقة مباشرة بالحالة السياسية لعصر المؤلف حيث يلجأ إليه الدعاة والمصلحون في كثير من الأحيان خاصة عندما يكون حكامهم مستبدون يسعون إلى تكميم الأفواه، فيلجون إليه للحفاظ على حياتهم .

المثال الثالث: وفي موضع آخر يصف بطش حكام بلاده، وطريقتهم في التعذيب والتنكيل بالدعاة،حيث وجد في قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (123) قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ (الأعراف: 123-124)، ملخصا لما تعانيه الجماعة المسلمة مع حكامهم فقال: "يتضمن هذا الدرس قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون وملئه من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين، إلى حلقة إغراقهم أجمعين، وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة وغلبة الحق على الباطل. وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى

وهارون وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل واستعلاء الحق في نفوسهم على هذا التوعد وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة، ثم ماتلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل. وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات، ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب، حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات. حتى حقت عليهم كلمة الله في النهاية فأغرقوا في اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه وفق السنة الجارية في أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك، ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة.. لتعقبها فتنة الرخاء..[14]، والقصة تقطع إلى مشاهد حية، تموج بالحركة وبالحوار، وتزخر بالانفعالات والسمات، وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة في السياق، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى «رَبِّ الْعالَمِينَ» وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله، المدعية للربوبية من دون الله، كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن، فلا تخشى سلطان الطواغيت ... ومن ثم يقول الله سبحانه عن فرعون وملئه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: 102)، وكل طاغوت يخضع العباد لشريعة من عنده، وينبذ شريعة الله، هو من «المفسدين» الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون! وافتتاح القصة على ذلك النحو هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصص. وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة، وللمحور الذي تدور حوله. لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى - تحقيقا للهدف من سياقاتها - ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال، فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها"[15].

وختم صاحب الظلال معنى الآيات بقوله: "إنه التعذيب والتشويه والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.. !ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم،

إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ "[16].

وهنا نلمس دعوة المؤلف لأصحابه بالصبر والثبات على الطغاة الذين يتسلطون على رقاب الضعفاء.

وأما صاحب تفسير المنار قال في مجمل هذه الآيات: "في هذه الآية إخبار بما توعد به فرعون السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وبما عزم عليه من التنكيل بهم وبما رد به السحرة عليه من استسلامهم لأمر الله لا لأمره ودعائهم ربهم بالتوفي على ملة الإسلام إن اتهامه السحرة بالتواطؤ مع موسى إثما كان تمويها على قومه المصريين، إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى فادّعى أنه لا ينتقم من السحرة إلا حبّا فيهم ودفاعا عنهم وإبقاء لاستقلالهم في وطنهم كما هو شأن كل رئيس أو ملك في شعب يخاف أن ينتقض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر يقوم بدعوة دينية أو سياسية، وعند ما سمع السحرة هذا التهديد والوعيد من ذلك الجبار المتكبر أجابوه، ﴿قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إنهم لا يأبهون بقتلهم، لأنهم راجعون إلى ربهم راجون مغفرته ورحمته، فتعجيل القتل يكون سببا لقرب لقائه والتمتع بجزائه[17]، وقد ختم سبحانه كلام السحرة بدعائهم بقولهم: «ربَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» أي ربنا هب لنا صبرا واسعا تفرّغه علينا وأيّدنا بروحك حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك ولا من الرجاء في سوى فضلك، وتوفّنا إليك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له في قوله ولا فعله. وقد ذكر المؤرخون قديما وحديثا أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من كل ملة ودين يكونون أعظم شجاعة وأكثر صبرا على مشاق الحروب من غيرهم، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش"[18].

ونلمس من خلال تفسير صاحب الظلال وتفسير المنار تشابها كبيرين في قضية التنزيل على الواقع وربط معاناة الشعوب مع حكامهم بالقصص القرآني ومقاصده الهادفة، وهذا يدل على إدراك الدعاة والمصلحين لمقاصد القرآن

الهادفة وأنها وسيلة فعالة في التأثير في المتلقي من جهة ومن جهة أخرى ربط الشباب المسلم بقضايا عصره.

المثال الرابع: يصف قطب أيضا حكام عصره فاستعمل تنزيلا سريعا عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَٰسِرُونَ (89) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِے دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (90) ٱلذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: 89-91)، فقال في هذا الشأن: "إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة، فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثم بالبطش والعذاب إنهم لا يملكون حجة على باطلهم، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمُصرين على الإيمان، الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان ولكنه من سنة الله الجارية أنه عند ما يتمخض الحق والباطل، ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة الله التي لا تتخلف"[19]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِے دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (الأعراف: 90)، قال: "الرجفة والجثوم، جزاء التهديد والاستطالة، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ويرد السياق على قولتهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف: 89)، وهي التي قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة! فيقرر - في تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا، إنما كان من نصيب قوم آخرين: ... ﴿فَتَوَلّٰے عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّے وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَےٰ عَلَےٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: 92)، إنه من ملة وهم من ملة فهو أمة وهم أمة أما صلة الأنساب والأقوام، فلا اعتبار لها في هذا الدين، ولا وزن لها في ميزان الله فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين"[20].

وفي الأخير وبعد هذا العرض الموجز نلمس من خلال تفسير قطب لهذه القصة المناداة بعدم التعصب لوشائج القربى وصلات الدم، كما يلفت انتباه القارئ إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع كما تظهر جهود قطب الإصلاحية في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم التفاضل بين الناس، وأن مقياس التفاضل هو تقوى الله تعالى.

وقال محمد دروزة رابطا القصة بالواقع: "وفي كتب التفسير بيانات كثيرة عن شعيب -عليه السلام- وقومه أيضا معزوّة إلى علماء الصدر الإسلامي الأول لا تخلو هي الأخرى من مبالغة وخيال، ولم نر طائلا في إيرادها لأنها غير متصلة بالهدف القرآني. وفيها مع ذلك دلالة على أن سامعي القرآن كانوا يعرفون هذه القصة كما كانوا يعرفون القصص الأخرى، تلقينات القصص وما فيها من نقاط بارزة متصلة بالهدف القرآني"[21].

وبهذا نصل إلى أن مفسري العصر الحديث أدركوا أن الخيال والأسطورة يخرجا القصة من مقاصدها التي وجدت من أجلها وهي هداية البشر، لذا وجب ربط المتلقي بواقعه حتى تؤثر فيه، ويكون جيل مسلم يتخذ من كتاب الله وقصصه المعبرة منهج حياة.

الفرع الثاني: تنزيلات القصص القرآني على القضايا المعاصرة (أمريكا أنموذجا واقعيا)

اعتبر قطب الدول الرأسمالية وعلى رأسها أمريكا العدو اللدود لشعبه، خاصة وأنه يسعى لمسح الهوية الوطنية الإسلامية واستغلال خيرات بلاده، فوجد في القصص القرآني العلاج والبلسم الشافي لمثل هذه القضايا السياسية فتحدث عن ابتلاء الأمم السابقة بالرخاء وبعد ذلك سُلِط عليهم العذاب، شأنهم شأن أمريكا التي كفرت بأنعم الله فأذاقاها الله لباس الجوع والخوف، وتصدع كيانها الأسري والاجتماعي والسياسي، وهذا عقاب رباني للذين أعماهم الشيطان وصد أعمالهم.

المثال الأول: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (الأنعام: 45)، رأى قطب في أمريكا تطبيقا واقعيا لمعنى الآية ويكون مصيرها كمصير

الأمم السابقة من خلال ابتلاءها بالرخاء والرفاهية وأنها لعدم شكرها لأنعُم الله سيحل بها غضب الله لا محالة فقال: "إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعصاة سواء، بهذه وبذاك سواء، والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر، ويكون أمره كله خير، ثم قال: "فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب! .. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصري، بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين ...كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين[22]، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (45) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: 45-46)... وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شي ء - تذوق منها الكثير.

على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير! إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ.. وهي طلائع لا تخطيء على نهاية المطاف!"[23].

من خلال ماتم عرضه نلمس جهود قطب الإصلاحية الدعوية وذلك من خلال اهتمامه بجيل الشباب، وزرع مبادئ الإسلام وقيمه الإسلامية في المجتمع حيث اتخذ من القرآن وآياته تطبيقا عمليا وأنموذجا واقعيا عن طريق الاهتداء بهداياته، وتنزيلها على حياة الناس، ولقد أحسن سيد قطب كغيره من الدعاة المصلحين من التنديد من خطر الحضارة الغربية والمتمثلة في أمريكا الرأسمالية التي نهبت خيرات بلاده وسعيها جاهدة للقضاء على معالم الهوية الإسلامية، وتجريد الإسلام من أهم خصائصه التي تميزه عن سائر الأديان، وذلك بمحو الثقافة الإسلامية الأصلية، كما نبه الشباب من الافتنان بالحضارة الغربية وبهرجتها الزائفة وأنها تمثل خطرا كبيرا على العالم الإسلامي، وأن تدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي ما هو إلا مخطط تسعى من ورائه للقضاء على الإسلام ومبادئه السامية.

الفرع الثالث: تنزيلات القصص القرآني على القضايا الأخلاقية والسلوكية

لا شك بأن الأخلاق هي سمة المجتمعات الراقية المتحضرة، فأينما وجدت الأخلاق متمة الحضارة والرقي والتقدم، وما دعوى الأنبياء إلا الدعوة إلى مكارم الأخلاق ونبذ السلوكيات الفاسدة، وقد أشاد ابن خلدون بالأخلاق ونبذ الرذيلة المتفشية في المجتمعات بقوله: "فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول، منطرحين في الغمار، منتحلين للحرف الدنية في معاشهم بما فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة. وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها"[24].

المثال الأول: اهتمامه بالقضايا الأخلاقية

اهتم قطب بالأخلاق أيما اهتمام باعتبارها صمّام الأمان والمحرك الفعال للفرد داخل مجتمعه فوجد في القصص القرآني المؤشر الذي يدعو من خلاله إلى تحقيق هذا المبدأ العظيم..، فاتخذ من قصة لوط عليه السلام رمزا للتعفف والطهارة، والدعوة إلى تزكية النفس والسمو بها والارتقاء بها من البهيمية الحيوانية إلى مستوى إنساني، **فقال**: "عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: 81)، قال: "يا عجبا! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجا، ليبقى فيها الملوثون المدنسون[25]، ولكن لماذا العجب؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة؟ أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية - وتسميه تقديمة وتحطيما للأغلال عن المرأة وغير المرأة - أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ولا تطيق أن تراهم يتطهرون لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين المدنسين القذرين؟! إنه منطق الجاهلية في كل حين!!"[26].

عالج قطب قضية جد خطيرة قضية الانحراف، فسعى من خلال الآية إلى ترقية الإنسان إلى مستوى يليق بالذات الإنسانية، وبهذا نقول أن المجتمعات التي تعشش فيها الآفات تكثر فيها المفاسد الاجتماعية، وينتشر فيها الظلم والفساد، ويموت فيها الضمير وتنسلخ فيها الخلاق، والقصة كفيلة بإخراج العالم من انحرافاته.

المثال الثاني: اهتمامه بقضايا السلوك والتدين

من أهم القضايا السلوكية التي تعرض لها سيد قطب في تفسيره هي قصة بلعم بن باعوراء التي وقعت في زمن نبي الله موسى عليه السلام، حيث حملت بين طياتها عبر عظيمةً للبشرية جمعاء، يتعلم منها كل موحد لله سبحانه وتعالى، وقد أفاضت التفاسير حول هذه القصة وأغلبها منقولا عن مسلمة أهل الكتاب، لكن قطب - رحمه الله- في تفسيره لهذه القصة خالف المتقدمين في طريقة تفسيرهم، ونزّل القصة تنزيلا مباشرا على واقعه، دون مقدمات حيث تحدث عن انحراف الناس عن دينهم، وصور نماذج بشرية لهؤلاء المنحرفون الخارجون عن القيم والأخلاق، فأشار إلى أفراد كان رآهم في عالم الواقع، وقد انسلخوا من آيات الله وصاروا من الغاوين فقال: "وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين اللّه ثم يزيغ عنها ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان اللّه وحرماته في الأرض جميعا! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق اللّه - سبحانه - من ادعاه فقد

ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر. ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضا!... ومع ذلك .. مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا الحق... ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم «المسلمين»! ويسمي ما يزاولونه إسلاما لا إسلام بعده! .. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاما ثم يكتب في حله كذلك عاما آخر... ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه[27]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف: 175)، فبين معنى الآية بقوله: "لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله فلم ينتفع بهذا العلم ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعا ذليلا للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان! ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟ إنه في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها، ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبدا، والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه فهو منطلق فيه أبدا! والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة، حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله، فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض ولا يتبعون الهوى ولا يستذلهم الشيطان ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان! .. فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان! "[28].

وبهذا نقول أن قصة بلعام بن باعوراء من القصص الرائعة والهادفة حيث ضرب الله فيها المثل والعبرة، للجاحدين بأنعُم الله، وقد أحسن سيد قطب في بداية عرضه للقصة وأنها مثل للكافر الذي اتخذ الطاغوت وليا، وخرج من النور إلى الظلمات، ومثل أيضا للمؤمن الذي اتخذ الله وليا، وخرج من الظلمات إلى النور، وإنما يقتصر على موطن ومكمن العبرة والدرس.

وفي الأخير يبقى المقصد العام من القصة أن الله ضرب به المثل والعبرة لكل من أتاه الله العلم وارتد إلى المعاصي وحطام الدنيا الزائلة رغم علمه بطريق الحق الذي لا طريق غيره، ولكنها شهوة النفس والطمع.

فلقد أتاه الله عز وجل من العلم ما لا يحصى ولا يعد وهذا من فضل الله عليه، ومن تلك الآيات التي أعطاها الله له أنه كان مجاب الدعوة، فأي دعوة كان يتوجه بها بلعام إلى أبواب السماء كان يحققها له الله سبحانه وتعالى، ولكن بلعم بن باعوراء كفر وضل عن طريق الحق بعد أن كان من المؤمنين، شأنه في ذلك كما لمح قطب بعلماء السلطان الجائر الذين يلوون عنق الآيات خدمة لحكامهم ومصالحهم الشخصية على حساب المستضعفين.

الفرع الرابع: القصص القرآني وترسيخه للقيم العقدية والروحية

لا بد لكل بناءٍ ماديًّا كان أو معنويًّا من أساس يقوم عليه والدين الإسلامي بناء متكامل يشمل جميع حياة المسلم منذ ولادته وحتى مماته ثم ما يصير إليه بعد موته، وهذا البناء الضخم يقوم على أساس متين هو العقيدة الإسلامية التي تتخذ من وحدانية الخالق منطلقًا لها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 164-165).

فالإسلام يعنى بالعقيدة ويوليها أكبر عناية سواء من حيث ثبوتها بالنصوص ووضوحها أو من حيث ترتيب آثارها في نفوس معتقديها ؛ إذ بدونها يتخبط الناس في ظلمات الشرك وشهوات الدنيا؛ فهي المحرك الأساسي لحياة الإنسان؛ إذ بدونها يكون الإنسان كالأنعام. قال الله تعالى فيمن حُرم هذه العقيدة ﴿أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: 44)، ولما كانت حاجة الناس للعقيدة أعظم من حاجتهم للأكل والشرب كان لابد لهم أن يهتموا بها[29].

المثال الأول: نجد القرآن الكريم يسوق لنا القصص القرآني لمقصد عظيم، لتحقيق هدف أسمى هو تأديب النفوس وتزكيتها، ولا يتأتى ذلك إلا بتنزيلها على واقعنا، وتطبيق للدرر والنفائس المستوحاة منها، بغية إيجاد العلاج لمشاكلنا المتفشية في مجتمعنا، وهذا ما ذهب إليه سيد قطب من خلال تفسيره لقوله

تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 87)، قال: "وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معا ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئا كثيرا في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العُصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة ـ وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة ـ وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها ـ ما أمكن في ذلك ـ وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.
- اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح وتزاول بالعبادة ذاتها نوعا من التنظيم في جو العبادة الطهور"[30].

لقد أحسن صاحب الظلال ببداية حديثه عن التعبئة الروحية النظامية بكونهما ضروريتين للأفراد والجماعات، وفيها شحن للهمم، وهذا نوع من التنزيل فيه إيقاظ للضمائر وتنبيه للقلوب، فقطب رحمه الله وجد في هذه الآية البسلم الشافي وعلاج للأمراض المتفشية في مجتمعه، لذا دعا إلى وجوب تقوية الصلة بالله، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية، خاصة بعد طغيان المادة وتفشي قيمها المسيطرة على الشباب في عصرنا الحاضر، وقد أفاض المفسرون في بيان معاني هذه الآية ومن ثم ربطها بواقع الناس، وهذا ما وضحه محمود حجازي بقوله: "وأوحينا لموسى وأخيه، أن اتخذوا لقومكما بمصر بيوتا تسكنون فيها، واجعلا بيوتكم متقابلين في جهة واحدة، وقيل

المعنى: واجعلوا بيوتكم قبلة للصلاة تصلون فيها خوفا من فرعون وملئه بدليل قوله وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين بحفظ الله ورعايته، ونصره لهم في كل زمان وحين"[31].

أما وهبة الزحيلي فقال في معنى الآية "ثم أوضح الحقّ تعالى سبب إنجاء بني إسرائيل من فرعون وقومه، فقال: وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُومِنِينَ﴿ (يونس: 87)، أي أمرنا موسى وأخاه هارون عليهما السّلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتا، تكون مساكن للاعتصام فيها، وأمر القوم أن يتخذوا البيوت مساجد متّجهة نحو القبلة في بيت المقدس، وأن يقيموا جميعا الصلاة في تلك البيوت، أي أتموها وافية بشروطها، لئلا يطّلع عليهم الكفرة، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. وبشر يا موسى المؤمنين برسالتك بالصون والنصر على أعدائهم في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

ولا شك بأن الإيمان الطوعي الاختياري هو الإيمان الحق، وهو المطلوب والذي يفيد صاحبه في الدّارين، وخطاب بني إسرائيل بالصلاة بعد الإيمان كان قبل نزول التوراة، لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر وإهلاك فرعون وجنوده في اليم.

ومن ثمار الإيمان الحق: التّفاني في مرضاة الله وتقديم الدين على الدنيا، لذا قدمت الطائفة المؤمنة بموسى عليه السّلام الحماية من الفتنة الإيمانية وعدم المحنة في الدين، على نجاة أنفسهم من ظلم القوم الظالمين"[32].

وبناءً على ما تقدم نلمح قواسم مشتركة من حيث المسلك بين الزحيلي وقطب رحمة الله عليهما، إذ عمدا إلى التنزيل التلميحي،إلا أن قطب ربطه ربطا مباشرا بواقع الناس من خلال إشارته إلى حكام بلاده ووصفهم بالطواغيت وتنزيل كل ما من شانه أن يدل على بطشهم وتنكيلهم بشعوبهم. ولاشك أن هذا دأب الدعاة والمصلحين، الذين يسعون للتعبئة الروحية للشباب المسلم، حتى يكونوا خير خلف لخير سلف.

وبهذا نخلص إلى أن مفسري العصر الحديث أدركوا أن القرآن مقاصده عظيمة وَوُجد من أجل غاية أساسية هي هداية البشر، وذلك عن طريق ربط مقاصد القرآن الكريم بواقع الناس بعيدا عن الأسطورة والخيال.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب الظلال لسيد قطب وتنزيله للآيات على واقعه، يمكن تسجيل جملة من النتائج أهمها:

- أن سيد قطب أحد رواد الدعوة الإصلاحية في العصر الحديث في العالم الإسلامي، اتخذ من آيات القرآن الكريم وسيلة علاج لما يعانيه مجتمعه من آفات.
- تفسير في ظلال القرآن يعتبر التطبيق العملي لقضية التنزيل على الواقع إذ به يشخص الداء ويجد له الدواء عن طريق ربط قصص القرآن بواقع الناس.
- اجتهد المفسر- رحمه الله - في ربط هدايات القرآن بالواقع والحياة التي يعيشها الناس في عصره، ولاشك أن هذا من أهم ما ينبغي على من فسر القرآن الاهتمام به.
- تعددت الجوانب التي نزل فيها الشيخ الآيات على واقعه وشملت الجانب العقدي، السياسي والاجتماعي.
- أدرك المفسر أهمية ربط الناس بكتاب الله تعالى وحثهم على العمل به، وتمكن من توظيف التفسير لإصلاح المجتمع.
- المعاناة القاسية التي عاشها قطب وإخوانه جعلته يكثر من التطبيقات العملية والتنزيلات الواقعية التي يعاني منها مجتمعه.
- لسيد قطب - رحمه الله- منهج خاص في تنزيل الآيات على الواقع، سلك فيه أسلوب التصريح أحيانا والتلميح غالبا.
- الواقعية من الأسباب التي جعلت الظلال يحظى بالاهتمام البليغ في أوساط الشباب لأنه ترجمان لما يعاني منه من التهميش والظلم والاضطهاد.
- ويبقى الظلال من التفاسير الفريدة من نوعها التي لامست الواقع المعاش لحياة الناس، وترجمت انشغالهم وآلامهم.

الهوامش:

[1]- ابن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون: دار الفكر، الطبعة: 1399هـ - 1979م، ج5، ص 417.

[2]- ينظر عبد العزيز الضامر ، تنزيل الآيات على الواقع، دار ابن جزم، ط2014م، ص16.

[3]- ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين، ت: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973، ج2، ص161

[4]- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت ط 2، 1393 – 1973، ج 2، ص389.

[5]- عبد العزيز الضامر، تنزيل الآيات على الواقع، ص16.

[6]- ينظر لسان العرب، ابن منظور، ط1، بيروت، ج 7، ص73.

[7] بلبول عبد الباسط إبراهيم محمد، القصص القرآني دت، جامعة الأزهر القاهرة ص36.

[8]- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، دار النشر مكتبة وهبة، ط11، ط 2000م، ص300.

[9]- ينظر مريم السباعي، القصة في القرآن الكريم، دار النشر جامعة أم القرى، ط 1404هـ -1984م، ص39.

[10]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ج2، ص1017.

[11]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص1893.

[12]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص 3214.

[13]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1349.

[14]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 3، ص1344.

[15]- سيد قطب، في ظلال القرآن ، ج 3 ، ص 1344.

[16]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص1355.

[17]- أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر، ج9، ص35-36.

[18]- المرجع السابق أحمد مصطفى المراغى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر، ج9، ص35-36.

[19]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص1322.

[20]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص1322.

[21]- محمد عزت دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، 1383هـ، دار الغرب الإسلامي، دمشق، ج2، ص426.

[22]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج2، ص 1091.
[23]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج2، ص 1091.
[24]- مقدمة ابن خلدون، دط، دت، ص 2093.
[25]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1316.
[26]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1316.
[27]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1398.
[28]- سيد قطب في ظلال القرآن، ج3، ص 1398.
[29]- ينظر عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار، أركان الإسلام، 1427هـ- 2006م، ج1، ص14.
[30]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص 1816.
[31]- محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، دار النشر: دار الجيل الجديد، ج2، ص85.
[32]- وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير الوسيط للزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1422هـ ، ج2، ص1000.